

**عن روسيا**  
وعن نهاية «نهاية» التاريخ

## بدي المرابطي

# عن روسيا وعن نهاية «نهاية» التاريخ

من الغرب إلى تركيا ومن العرب إلى الصين:  
هوامش على التوقعات الروسية لسنة 2015

«الحرب جدُّ غير عادلة وجدُّ  
قبيحة لدرجة أن كلَّ من  
يخوضها يُضطر إلى أن يحاول  
حنقَ صوت ضميره».

ليون تولستوي

الكتاب:

عن روسيا وعن نهاية «نهاية» التاريخ

المؤلف:

بدّي المرابطي

الناشر: -----

الطبعة الأولى - 2022

الترقيم الدولي للكتاب :

**978-2-37711-199-2**

جميع الحقوق محفوظة (دار النشر أو المؤلف)

## الفهرس

- مدخل - زينو فييف: نهاية الشيوعية أو نهاية  
الديموقراطية والغرب؟ ..... 9
- الربيع: ليس هناك أحد في روسيا يريد متاريس  
الثورة ..... 21
- روسيا وتركيا: راهنية استنفار الذاكرة ..... 37
- أوروآسيوية روسيا: من الغرب إلى تركيا  
والعكس ..... 49
- ما بعد الأحادية القطبية: من روسيا إلى  
الصين ..... 63

## مدخل

# زينوفيف: نهاية الشيوعية أو نهاية الديموقراطية والغرب؟<sup>1</sup>

---

1 نُشر في رأي اليوم، 4 يوليو 2015 (وقد نُشرت منه صيغة أولى في صحيفة الخليج العربي بتاريخ 16 مايو 2006).

- 1 -

لم يغفر كثيرون من أنصار النهاية  
الفوكوياميَّة لِأَلِكَسَنْدَرِ زِينُوْفِيْف -  
الكاتب والمنطقي الروسي الذي رحل  
سنة 2006 - موافقه بعد نهاية الحرب  
الباردة التي تختصرها عبارته الذائعة:  
”الليبراليون أشد خبثاً من الستالينيين.  
أعرفهم فهم يتشابهون كما تشابه  
الفسافس في ثنایا خشب الإيسباً“<sup>2</sup>.

---

Alexander Zinoviev: “The End of 2  
Communism in Russia Meant the End  
of Democracy in the West” Cf. <http://>

الباردة أحد النماذج البارزة للمثقف الروسي المارق من وعلى الاتحاد السوفيتي والذي تُباهي به الدعاية الليبرالية. فقد وقف ألكسندر زينوفيف ضد ستالين - بل حاول اغتياله - كما روى ذلك لاحقاً.

- 2 -

بعد صدور «المرتفعات الفاغرة» بعدة لغات، بدأت مطاردته وبدأ تشرده فاستقر في ألمانيا الغربية ليصبح أستاذاً

ولذلك هبط في العقدين الأخيرين الاحتفاءً بأعماله في كثير من الأوساط التي كانت تعتبر كتبه فتوحات كونية. فقد كرّسه كما هو معروف دور النشر العالمية بعد صدور «المرتفعات الفاغرة» سنة 1976.

صارَ زينوفيف منذ أواخر الحقبة البريجنيفيّة وبمقتضى منطق الحرب

---

.zinoviev.info/wps/archives/1309  
وأيضاً: AMALRIC Jacques et Ange- Dominique BOUZET, “Dernier exil pour Alexandre Zinoviev”, Libération, Samedi 13 mai, 2006

للرياضيات وفلسفة العلوم بجامعة  
مُيونِيخ. وأخذتْ كُتُبُه تتالَى ونقمتُه  
تزداد على ما يسمِّيهِ «البيروقراطية  
التي تلدها الأيديولوجيا السوفيتية»  
فعرفتْ أعماله رواجاً كونياً.

ولكنه بعد انهيار الحلف الشرقي فاجأ  
مادحيه ومُقرّظيه الليبراليين بكتابه  
«الغربوية» و«القطيعة الكبرى». الأطروحة  
الأساسية لـ«القطيعة الكبرى» هي أن  
انتصار «الغرب» في الحرب الباردة  
وتتويج الهيمنة العالمية للولايات  
المتحدة كان أيضاً تتويجاً لنهاية أوروبا

الغربية كفاعل في التاريخ. فالأخيرة  
«لم تعد صانعة للتاريخ بل أضحتْ  
مستسلمة له». حضارة أوروبا الغربية  
عاشتْ في نظره ذروتها مع تكوُّن دولها  
القومية، ثم جاء القرن العشرين كإعلان  
أوَّلِي عن انهيارها. ولكن صاحب  
«المرتفعات الفارغة» كان يرى أيضاً  
أن انهيار أوروبا يحمل معه تزامناً  
انهيار الديمقراطية.

فانتصار الولايات المتحدة في الحرب  
الباردة بالقضاء على التعددية القطبية  
قد قضى بنفس المستوى على شرط



حاول زينوفيف الإجابة عن هذا السؤال من خلال مقال نُشر عشية عودته إلى روسيا سنة 1999 وحمل عنوان «لماذا أعود إلى روسيا؟» وفيه: «لكي أجيب عن هذا السؤال عليّ أن أجيب عن آخر: لماذا وجدت نفسي منذ خمس وعشرين سنة خارج روسيا، في الغرب؟»<sup>3</sup>. ويجب مطولاً عن السؤال الأخير بما مقتضاه أن معارضته كانت

---

AMALRIC Jacques et Ange-Dominique 3  
BOUZET, "Dernier exil pour Alexandre  
Zinoviev", Libération, Samedi 13 mai,  
2006.

ضروري من شروط الديمقراطية. وانتهاء الحرب الباردة قد دشّن في نظره مرحلةً ليست فقط ما بعد شيوعية ولكنها أيضاً ما بعد ديمقراطية.

### - 3 -

هل مثلت «القطيعة الكبرى» ارتداداً عن ماضي صاحبه كما توحى به العبارة الصحافية «انشقَّ عن انشقاقه»؟

بسبب العداة الذي واجهته أعماله العلمية والأدبية التي يتضمن جلها «وصفاً دقيقاً للمجتمع السوفيتي».

ولكن بداية التسعينيات عرفت انهيار الاتحاد السوفيتي وتدمير النظام الاجتماعي السوفيتي في البلدان المكونة له. ولم ينتج عن ذلك في روسيا الازدهار الذي وعدت به الدعاية الغربية. ولكن على العكس من ذلك عرف المجتمع تقهقراً متسارعاً في كل الميادين السياسية والاقتصادية والإيديولوجية والأخلاقية والاجتماعية. وهنا تبدأ تعقيدات جديدة

تتكشف لزينوفيف. ف«قول الحقيقة» في وصف المجتمع السوفيتي هو الذي جعله يُطرد من بلده. وما يكتبه عن روسيا المابعد سوفيتية يجرُّ عليه مقاطعة أعماله العلمية والأدبية ويجعل إصدارها ونشرها مستحيلاً عملياً.

- 4 -

خلف هذا الموقف البالغ التشاؤم نكتشف بين العبارات نوعاً من تأنيب الضمير يتجلى من حين لآخر حين

يتحدث زينو فييف عن أنه أخذ في السنوات الأخيرة للحرب الباردة يكتشف المخطط الغربي لإلغاء روسيا وتحويلها إلى «شعوب بدائية غير قادرة على حكم نفسها».

فالتعددية القطبية مثلت بدهةً على الصعيد الدولي مصدراً للتوازن السياسي على الصعيد الجيوستراتيجي كما على الصعيد الداخلي لكل دولة. فهي التي كانت خلف وجود توازن مثمر بالنسبة للدول الليبرالية. فضل التنافس مثلاً مع الحلف الشرقي يقوي الهيئات

النقابية داخل الدول الغربية، ويُرغم الأخيرة على تطوير الحقوق الاجتماعية والعمالية. وهو ما يجعل زينو فييف يؤكد ككثيرين غيره على أن تراجع الطابع الاجتماعي للديمقراطيات الغربية في العقد الأخيرين هو تراجع للديمقراطية ككل. كما يؤكد على وجود تناقض جذري بين الاحتفاظ بمكتسبات الليبرالية السياسية وحرياتها وبين انتصار الليبرالية الاقتصادية كما يُكرّسه مثلاً تغول التدوير العولمي لرأس المال.

البديلة. وهو بالتأكيد تاريخ ستحاول فيه روسيا أن تستعيد مكانة ما إلى جانب القوى العالمية الجديدة كالصين والهند التي أخذت تتحرك بحذر ولكنها تتحرك. ف«القطيعة الكبرى» ليست إلا واحدة من قطائع أخرى. ومخيلة التاريخ تظل دائماً أكثر خصوبة ممن يتوهمون أنهم صنّاعه.

هل انتهت نهايةُ التاريخِ الفُوكوياميّة وانتهى معها الابتهاج بـ«انتصار الليبرالية»؟ لقد تحققت على الأقل عناصر دالة من التوقّعات الشبنغلرية حول تراجع مكانة أوروبا في العالم. وهو ربّما ما يعنيه تغيير معنى مفردة «الغرب» الذي لم يعد يحيل من الناحية الجيوستراتيجية إلى أوروبا الغربية.

بدأ على الأقل تاريخ آخر أو تاريخٌ مختلفٌ باستعمال عبارات حركة العولمة

الربيع : ليس هناك  
أحد في روسيا يريد  
متاريس الثورة<sup>4</sup>

---

4 نُشر في رأي اليوم، 7 نوفمبر 2015.

يَدَّعي الكاتب الروسي ميخائيل  
شيشكين بلغة ساخرة أن مشكلة روسيا  
هي أنها دائماً تعمل للوصول إلى هدف  
محدّد فتحصّد النتيجة المعاكسة.  
وأنه لذلك حاول قديماً بطرس الأكبر  
إضعاف أوروبا في مواجهة روسيا  
فكانت النتيجة أنه أضعف روسيا في  
مواجهة أوروبا. ولذلك أيضاً حاول  
غورباتشوف إنقاذ الاتحاد السوفيتي  
فكانت النتيجة أن الاتحاد اختفى من

سقوط بن علي سنة 2011. طبعاً ليس ذلك لأن للثورة والديمقراطية أيضاً قصة حزينة في العالم العربي. ولكن أساساً لأن لروسيا قصة غير سارة مع سقوط أو تغيّر الأنظمة في المنطقة.

- 2 -

يُلخّص عرضُ أعدّه سنة 2013 فرُع  
مركز كارنيغي في موسكو تحت عنوان

الوجود<sup>5</sup>. ويضيف شيشكين أيضاً في نفس السياق الساخر أن هنالك قصةً روسية حزينة للثورة موازيةً أو محايدةً لما يراه قصتها الحزينة مع الديمقراطية وبسببها «ليس هناك أحد في روسيا يريد متاريس الثورة»<sup>6</sup>.

لا يبدو أيضاً أن روسيا بوتين أحبّت متاريس الثورة في العالم العربي منذ

---

SHISHKIN Mikhail, « Poets and 5  
Czars, from Pushkin to Putin : the  
sad tale of democracy in Russia »,  
*the New Republic*, 1 July, 2013.

*Ibid.* 6

- أما المرحلة الثانية فهي المرحلة السوفيتية خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية حين أصبح العالم العربي والعالم الثالث عموماً المجال الرئيس لتنافس الاتحاد السوفيتي وحلفائه مع الولايات المتحدة وحلفائها. ولكن هذا الحضور أخذ يتراجع مع بداية تفهقر الاتحاد السوفيتي في السبعينيات.

- أما روسيا المابعد سوفيتية فقد كانت غارقة في مشاكلها الداخلية ولم يظهر من جديد الاهتمام بالعالم

«روسيا والربيع العربي»<sup>7</sup> تاريخ روسيا مع العالم العربي في ثلاث مراحل:

- مرحلة روسيا القيصرية أو الامبراطورية الروسية التي لم تكن مَعْنِيَةً به. كانت تنظر إليه كجزءٍ طَرَفِيٍّ في الامبراطورية العثمانية المنافسة لها (مع استثناءات قليلة مثل مصالح الكنيسة الأرثوذكسية في بعض بلدان المشرق إلخ.).

---

MALASHENKO Alexey, *RUSSIA AND THE ARAB SPRING*, Carnegie Moscow Center, OCTOBER 2013.



تُعدُّ ورقةٌ نشرتها في شهر مايو عام 2015 مؤسسة العمل من أجل العلاقات الدولية والحوار الخارجي (بروكسيل / مدريد، 2015) مصالح روسيا في البلدان العربية وتوجزها في أربع:

- إحداها تفادي ما تراه روسيا محاولة أوروبية أمريكية لحرمانها من حلفائها.

العربي إلا مع وصول بوتين الى السلطة سنة 1999.

يرى التقرير أن سياسة روسيا البوتينية بهذا الخصوص هي مزيج من الرغبة في استعادة تركة الاتحاد السوفيتي ومن اعتبارات تخصّ المصالح الحيوية الروسية في السياق المابعد سوفيتي. هكذا يحاول التقرير تفسير حرص الكرّيملين على الاحتفاظ بقاعدة طرطوس في سوريا وتنشيطها كآخر بقايا الحضور العسكري السوفيتي في المنطقة.

خاص في الهزات التي يعرفها والتي يمكن أن يعرفها هذا السوق.

- أما المصلحة الجيوستراتيجية الرابعة فتتعلق بطموح الكرملين إلى تصدير منتوجاته العسكرية إلى الدول العربية. هذا بالرغم من أن حجم التبادلات التجارية بين الدول العربية وروسيا ظلّ على الإجمال ضعيفاً.

- أما الثانية فترتبط بالتخوف من وصول حركات طائفية متطرفة إلى السلطة في البلدان العربية لا ينتج عن وصولها فقط تفويض نفوذ روسيا في المنطقة ولكن يكون لها تأثير في المناطق الإسلامية حول روسيا وداخلها.

- أما الثالثة فتتعلق باعتماد روسيا إلى حدّ كبير على مداخيلها من البترول والغاز، وهو بالتالي ما يجعلها تخاف من كل ما يمكن أن يؤثر في أسعارهما. وهي تنظر وفقاً لذلك بحذر إلى الدول العربية المصدّرة للطاقة ودورها بشكل

يعتبر أن أغلب دول العالم الإسلامي لم تُرحّب بهذا الدور الروسي المقترح وأن الدول الغربية ليست لها حاجة إلى وساطة روسية في علاقتها مع دول العالم الإسلامي.

وكانت روسيا قد شعرتُ بشكل خاص بالخيبة حين عجزتُ كلُّ محاولاتها عن خلق تعبئة كافية دولياً وإقليمياً لمنع احتلال العراق، حليفها - وإن تعلق الأمر بتحالف محدود - الموروث عن الحقبة السوفيتية.

يُعتبر تقرير معهد كارنيغي أن بُوتين حاول في بداية حكمه أن يُقدم روسيا ككيان مختلف في آن عن الغرب وعن العالم الإسلامي وقادرٍ بالتالي أن يلعب دورَ الوسيط بينهما (منذ 2005 أصبحتُ روسيا التي تضمّ خمسا وعشرين مليون مسلم<sup>8</sup> عضواً مراقباً في منظمة المؤتمر الإسلامي). ولكن التقرير

---

<https://www.aljazeera.com/features/2018/3/7/islam-in-russia> 8

وأخفق في التوصل إلى اتفاقيات بشأن عدد من العقود الاقتصادية. كما رفضت عدد من الدول العربية مقترحاته بشأن خلق منظومة أمنية إقليمية.

## - 5 -

بعد ستة أشهر من انطلاق أحداث «الربيع العربي» لاحظت ورقة نشرها مركز الدراسات الأمنية في زوريخ

أحست روسيا حينها حسب التقرير بمرارة كونها لم تستعد ما يكفي من القدرات لتكوين قوة موازنة نسبياً للولايات المتحدة خصوصاً في مناطق النفوذ السوفيتية السابقة. فتمّ إذاً تدمير أحد آخر حلفائها في المنطقة دون أن تستطيع فعل شيء يُذكر. ولم يبق لها بعده من الحلفاء الموروثين عن الحقبة السوفيتية سوى الأسد والقذافي.

ويضيف التقرير أن بوتين شعر بالفشل بشكل خاص في علاقته مع الدول العربية خلال لقاءات القمة بين 2005 و2007

ومصر عن مواقف الدول الغربية. فقد أصيبت من ناحية بارتباك شديد أمام هذه الهزات الجيوستراتيجية المفاجئة. ومن ناحية ثانية أرادت مثل الدول الغربية مجاملةً اندفاع الرأي العام وبالتالي إظهار مواقف إيجابية تجاه التغييرات التي عرفتها مصر وتونس. ومن ناحية ثالثة عملت على أن لا تتم هذه التغييرات على حساب ما تراه مصالحها الحيوية.

ولكنَّ المعلقين الروس شبه الرسميين لم يكونوا حينها يتسترون على تخوفهم

(يوليو 2011)<sup>9</sup> أن وصول الثورات الشعبية إلى ليبيا قد جعل روسيا تُظهر شيئاً فشيئاً تخوفاتها التي كانت نسبياً مُضمرة مع سقوط بن علي ومبارك. فبقدر ما فاجأت الثورات العربية الدول الغربية بقدر ما فاجأت روسيا.

ولم يختلف موقفها المعلن في الأشهر الأولى مما حدث في تونس

---

KATZ, Mark N., and Va FAIRFAX, 9  
“Russia and the Arab Spring”, *RUS-  
SIAN ANALYTICAL DIGEST*, No. 98,  
6 July, 2011.

من أن تكون الثورات العربية تمّت على طريقة ثورات أوروبا الشرقية. فالأخيرة في التصور الرسمي الروسي لم تكن إلا انعكاساً ليد خفية غربية.

وفي جميع الأحوال كانت لروسيا في بداية 2011 ثلاث تخوفات رئيسة:

- الأول أن يقود الربيع العربي إلى وصول تيارات «ليبرالية» موالية للغرب إلى السلطة. وهو ما يعني بالنسبة لروسيا إمكانية أن يكون الربيع العربي تمهيداً غربياً لدعم عدد من الثورات في العالم بما في ذلك منطقة نفوذ

روسيا أو حتى داخل الدولة الروسية وهو ما يعني من منظور موسكو العودة من جديد إلى مربع المطبات التي تلت نهاية الحرب الباردة.

- أما السيناريو الثاني فهو أن يسمح الربيع العربي بوصول ما تراه روسيا حركات دينية طائفية متطرفة سيكون لها تأثير إقليمي ودولي خطير.

- أما السيناريو الثالث والذي عبّرت عنه روسيا حينها بصراحة أكبر فهو احتمال أن تدخل المنطقة لسنوات دوامة عنف طائفي تخشى روسيا تمدده إلى

مناطقها الإسلامية (حولها وداخلها،  
خصوصاً في القوقاز الشمالي ومنطقة  
القوقاز).

ورغم أن روسيا قد حاولت الوقوف  
في وجه محاولات التدخل الدولي في  
ليبيا فإنها اضطرت منذ البداية إلى  
التراجع نسبياً. وحتى حين أرادت  
التوسط لإيجاد مخرج سياسي في  
ليبيا في يونيو 2012 فقد اكتشفت أن  
الوقت قد أصبح متأخراً جداً. وفضلاً  
عن الخسارة المالية (ضياع الديون  
وإلغاء عقود «غازبروم» و«تاتنفت»)

فقد أحسّت روسيا أن الدول الغربية قد  
بالغت في إذلالها بـ«طردها» عملياً من  
دولة حليفة، وأنها اكتسبت عداوات في  
ليبيا سيكون من العسير تجاوزها.

يجد هنا طبعاً إصرارها بكل الوسائل  
على تفادي تكرار السيناريو الليبي  
في سوريا بعض أسبابه. ولكن تقرير  
كارنيغي يضيف عنصراً آخر يستحق أن  
نتأمله. يتعلق الأمر بمشروع خطوط  
الأنابيب (قطر/ سوريا/ تركيا من جهة  
وإيران/ العراق/ سوريا من جهة ثانية)  
الذين أثاروا عدداً من التأويلات. حيث

## روسيا وتركيا: راهنية استنفار الذاكرة<sup>11</sup>

11 نُشر في رأي اليوم، 28 نوفمبر، 2015.

يضيف التقرير العبارة اللافتة: « طالما بقيت سوريا غير مستقرة فلا قطر ولا إيران تستطيعان متابعة ما تطمحان إليه من تشييد خطوط أنابيب الغاز عبر سورية. وهو ما يمنح روسيا وقتا إضافيا لتطوير مشاريع غازها»<sup>10</sup>. وهي عبارة قد لا تصدق بشأنها بالضرورة إشارات شيشكين الساخرة.

---

MALASHENKO Alexey, *RUSSIA* 10

*AND THE ARAB SPRING*, Carnegie

Moscow Center, OCTOBER 2013, p.

12.



- 1 -

يمكن أن يُقال بمعنى ما عن  
الإمبراطوريتين العثمانية والروسية  
إنهما وريثتا الإمبراطورية البيزنطية.

وبينما تمثّل الإمبراطورية العثمانية  
الوريث الترابي والديموغرافي فإنها  
تمثل وريث القطيعة، وريث التحول  
الحَدّي الذي يرمز إليه استبدال اسم  
القُسطنطينية بإسطنبول.

بينما تُمثل الإمبراطورية الروسية  
وريث الاستمرار والشرعية في نظر

أوساطها الأرثوذكسية (على الأقل قبل نقل القيصر بَطْرُس الأول عاصمته من موسكو إلى سان بيترسبورغ). وهو ما تختصره تسمية موسكو بروما الثالثة (والقسطنطينية روما الثانية).

فسردية «انتقال» الإرث البيزنطي الأرثوذكسي من القسطنطينية إلى موسكو (عبر كييف وفلاديمير إلخ) انتشرت على ما يبدو خصوصاً في أوج الصراع الروسي العثماني عبر إعادة استثمار عدد من العناصر التاريخية التي اعتُبرت مؤسسةً (كزواج إيفان

الثالث في الكرملين بالأميرة صوفيا باليولوغس بنت أخ آخر إمبراطور بيزنطي تسع عشرة سنة بعد الفتح العثماني للقسطنطينية). وهي إعادة استثمار قد لا تكون لاحقاً أجنبية تماماً عن السردية الموازية المتعلقة بانتقال الخلافة إلى إسطنبول.

- 2 -

بعد أكثر من أربعة قرون من الحروب، اصطداماً واقتراباً، انهارت امبراطوريتنا

روسيا القيصرية وتركيا العثمانية في الحرب العالمية الأولى ونشأت من بين ما نشأ من حطامهما روسيا البُلشفيَّة وتركيا الكَماليَّة.

ثمَّ ورثت البُلشفيَّةُ بشكل مباشر أو غير مباشر أغلب المناطق التي كانت مسرح الصراعات التاريخية بين الامبراطوريتين بما فيها تلك التي يُنظر إليها في تركيا باعتبارها مناطق الجذور في آسيا الوسطى والقوقاز. وكادت روسيا أن تحصل عبر الاتحاد السوفيتي وحلفائه على ما فشلت في

الحصول عليه عبر كل الحروب التي خاضها قياصرُها ضدَّ الإمبراطورية العثمانية والتي ساهمت بالتأكيد في إيصال الأخيرة إلى الحالة التي أطلق عليها الأوروبيون في القرن التاسع عشر تسمية «الرجل المريض».

في جميع الأحوال فإن السلسلة الطويلة من المعارك العثمانية الروسية قد لعبت الدورَ الأبرز في إضعاف وتقهقر الإمبراطورية العثمانية حتى قبلَ ظهور دُول أوروبا الغربية الحديثة التي لم تكن متحمسة إلا جزئياً للقضاء

على امبراطورية الباب العالي مع أنها  
استثمرت ضعفها وسرّعت موضوعاً  
تفكّكها.

انهيار الاتحاد السوفيتي من جهة ومع  
تراجع المدّ الكمالي في تركيا من جهة  
ثانية.

### - 3 -

منذ التسعينيات من القرن الماضي  
أخذت ذاكرة هذا المسار الطويل تطفو  
جزئياً على سطح العلاقات الدولية دون  
أن تكون قد اختفت تماماً خلال الحرب  
الباردة. أصبح حينها من المحتمل  
أن التاريخ سيأخذ وجهة جديدة بعد

خصوصاً أصبح حينها من البديهي  
أن استقلال جمهوريات آسيا الوسطى  
والقوقاز مروراً بإشكاليات البلقان  
وأوروبا الجنوبية لا سيما مع تفكّك  
يوغسلافيا وحرب البوسنة ستشكل  
مسرحاً رمزياً لإعادة استنفار الذاكرة  
المشتركة.

امتلاك تأثير في الشرق الأوسط»<sup>12</sup>.  
ومن جهة ثانية تصطدم تركيا وروسيا  
كثيراً في المناطق الناطقة باللغات  
التركية أو المتداخلة معها. فالأخيرة  
كـ«إرث سوفيتي» تمثل بالنسبة لروسيا  
منطقة نفوذ حيوي مباشر بينما تمثل  
في نفس الوقت بالنسبة لتركيا منطقة  
بالغة الحساسية لأسباب رمزية تاريخية  
معروفة ولأسباب ثقافية واجتماعية

---

ZARAKOL Ayşe, “ Turkey, Ru - 12  
sia, and the Arab Spring”, *PONARS  
Eurasia Policy Memo*, No. 207, June  
2012.

ولكن استنفار هذه الذاكرة أخذ أبعاداً  
أكثر ثخونة مع روسيا بُوتين و تركيا  
أرذوغان لأسباب متعددة متضافرة.

ففي الأفق الجيوستراتيجي تُمثل  
بدايةً تركيا قطبَ تأثيرٍ مزدوج في العالم  
العربي وفي المناطق الناطقة باللغات  
التركية. من جهة «روسيا هي إحدى  
أبرز العقبات أمام طموحات تركيا في

ولكن مصالح تركيا في روسيا تجعلها كما هو معروف مضطرة إلى كثير من التنازلات. فنصف الغاز الطبيعي المستورد إلى تركيا هو غاز روسي وكذلك نسبة كبيرة من البترول (شكّلت الأزمة السورية مثلاً عنصر عرقلة لمشاريع تركيا في الحصول على مصادر طاقة بديلة). كما أن روسيا تمثل أحد أهم الفاعلين في مشاريع الطاقة النووية في تركيا وأحد أهم الأسواق بالنسبة للمنتجات التركية.

ملموسة ولكن أيضاً لأسباب اقتصادية راهنة لا سيما في القوقاز والحوض القزويني.

وتعتبر تركيا بشكل خاص أن روسيا قد عرقلت محاولتها للتطبيع مع أرمنيًا وأنها استغلّت هذه المحاولة في إبعاد أذربيجان عن المجال التركي.

كما أن تركيا اصطدمت بتدخل روسيا في جورجيا في صيف 2008 فالأخيرة حليف استراتيجي لتركيا في عدد من المشاريع الطاقة كما أنها تمثل سوقاً مفتوحة للمنتجات التركية.

ما الذي يعنيه هذا المسار الآن في واقعه التاريخي وفي استنفاره السردى؟ لذاكرة الصراع الثنائي في أي مكان عدة استعاداتٍ ممكنة وبالتالي عدة قراءات يمكن توزيعها إجرائياً إلى اثنتين:

- إحداهما هوياتية ثبوتية تُجوهر الصراع وتؤبده. تجعل ماضيه مبرراً لمواصلته بين كيانين محكوم عليهما أزلياً بالمواجهة.

وقد حاولت تركيا تفادي العقبات الروسية عبر محاولة خلق فضاء تكاملي للتعاون بين روسيا وتركيا وجورجيا وأذربيجان وأرمينيا سمّته «متدى القوقاز للتعاون والاستقرار». وفضلاً عن أن هذا المتدى لم يرَ النور فإن إحدى نتائجه كان تعقيد علاقات تركيا مع حلفائها الغربيين.

- أما الثانية فحركية تاريخية تنظر إلى الصراع الطويل في الماضي كإرث يمكن أن يؤسس لذاكرة مشتركة وأحياناً جامعة في الحاضر أو تُستنفَر قُصدياً لتكون جامعة.

أين يمكن موقعةً روسيا بوتين وتركيا أرdoğan بين القراءتين خصوصاً فيما يتعلق باصطدام الطرفين في سوريا؟ لنوسع قليلاً زاوية النظر قبل أن نعيد طرح السؤال.

## أوروآسيوية روسيا: من الغرب إلى تركيا والعكس<sup>13</sup>

---

13 نُشر في رأي اليوم، 5 ديسمبر، 2015.



- 1 -

شهد يوم 23 سبتمبر عام 2015  
تدشينَ مسجد موسكو الكبير بحضور  
رسمي (الرئيسان الروسي والتركي  
وبعثات أخرى فلسطينية وكازاخستانية  
إلخ.).

أرادت السلطات الروسية أن يحملَ  
رسائل محدّدة. هكذا أعيد افتتاحُ  
المسجد الضخم بعد عشر سنوات  
من إعادة البناء والتوسيع التي قامت

بها شركة بناء تركية بتمويل روسي إسلامي.

ورغم أن استطلاعات الرأي أظهرت حينها أن أغلب الروس ينظرون بعدم الارتياح إلى إعادة افتتاح مسجد موسكو الكبير فإن الغايات السياسية لحكومة بوتين جعلت الأخير يُصرُّ على استثمار الحَدَث. فمثلا اعتمدت السلطات الروسية كثيراً على تركيا في تحسين صورتها لدى مسلمي روسيا (الخمس وعشرين مليوناً) الذين ينتمي أغلبهم إلى نسيج الثقافات واللغات التركية.

بعد ذلك بخمسة أيام سرّبت السلطات الروسية معلومات ذات أبعاد رمزية بديهية عن اتفاق روسي تركي حول الشروع في بناء «مسجد ضخّم» في عاصمة شبه جزيرة القرم بتمويل وتنفيذ تركي.

ثم تسارعت الأحداث أكثر ولكن في اتجاه ومكان آخرين. فيؤمّان بعد هذا الإعلان (30 سبتمبر 2015) أجاز برلمان الفدرالية الروسية قراراً بالتدخل الواسع للجيش الروسي في سوريا.

في ذاكرة الصراع الروسي التركي.  
ولها مكانة أيضاً في ذاكرة الصراع  
الروسي الغربي.

وقد كرّرت تركيا أنها لن تعترف بضمّ  
القرم إلى روسيا ولكنها ابتعدت، عكس  
حلفائها الغربيين، عن كل إجراءات أو  
لهجة تصعيدية خلال الأزمة الأوكرانية  
واكتفت، مثلاً بالنسبة لمسلمي القرم،  
بدعم رمزي للمؤتمر العالمي للتتار.  
هذا بالرغم من أن مسلمي القرم -  
وأغلبهم تتار - يشعرون بتخوف كبير من  
انعكاسات ضمّ بلدهم إلى روسيا.

من الوارد جداً أن أزمة أوكرانيا  
وانضمام القرم إلى روسيا مثلت أكبر  
حدّث جيواستراتيجي في القارة الأوربية  
منذ انهيار جدار برلين. بمعنى ما، مثلت  
الأزمة الأوكرانية من وجهة نظرٍ غربيةٍ  
نهايةً «نهاية التاريخ».

لنتذكّر هنا أن اسم القرم مأخوذ  
حسب الألسنيين من اللغة التتارية  
التركية ومعناه: «جبلنا». ولشبهه جزيرة  
القرم كما هو معروف مكانةً مركزيةً

الصراع على التحكم في مصادر الطاقة في العالم هي أيضا المناطق التي تحاول الولايات المتحدة عبرها تطويق روسيا. وهي أيضا المناطق التي نظرت إليها روسيا خلال كل القرن العشرين كطوق نجاتها الطاقوي والجيوسراتيجي. إنها بداية إحدى المناطق الجيوسراتيجية المَفْصَلية في العالم. طبعاً يوجد هنا أحد العناصر البارزة التي تقف خلف أهمية تركيا بالنسبة للولايات المتحدة.

تنامت العلاقات التركية الروسية خلال العقدين الماضيين بشكل ملحوظ وأصبح التعاون الاقتصادي المتعدّد الأبعاد عنوانها المركزي.

موازاة مع ذلك، اكتسبت تركيا منذ التسعينيات نفوذاً متزايداً في جزء من المناطق الناطقة باللغات التركية وبشكل أعمّ في القوقاز الجنوبي وهو بالتأكيد أمر حساس بالنسبة لروسيا. فهذه المناطق التي تُشكّلُ أحد مفاتيح

البلدان الناطقة باللغات التركية. وعنى تبعاً لذلك تأثيراً بمستوى أو آخر في عموم المناطق الإسلامية حول وداخل روسيا، من آسيا الوسطى إلى أوروبا الجنوبية، وهو أمر تنظر إليه روسيا بحذر كبير.

وفي نفس الوقت فإن ابتعاد تركيا عن الغرب يجعل روسيا تشعر بامتلاك أوراق ضغط أكبر على تركيا وهو ما ظهرَ مثلاً في ملفات العلاقات التركية مع بعض دول القوقاز. من هنا أيضاً اهتمام تركيا بتوسيع خياراتها الشراكية

ندرك إذاً أن نفس العناصر التي تدفع تركيا وروسيا إلى الصراع تدفعهما أيضاً إلى التقارب.

روسيا مثلاً نظرت بإيجابية إلى ابتعاد تركيا المتزايد نسبياً خلال العقد الأخير عن حلفائها الغربيين. ولكن هذا الابتعاد التركي عن الدول الغربية عنى عملياً إعادة تموقع تركيا في العالم الإسلامي وخصوصاً، من جهة، في العالم العربي، و، من جهة ثانية، في

المُفَخَّخَة في هذا المستوى. وأياً تكن الأسباب الفعلية لإسقاط تركيا لطائرة سوخوي الروسية في 24 نوفمبر 2015 فإن مثل هذه الأحداث، خصوصاً إذا تكررت بصيغة أو أخرى، تمنح بمعنىً مُعَيَّن الولايات المتحدة وحلفاءها الغربيين ورقة ضغط مزدوجة.

كيف يمكن تفسير ما اعتُبر - ربما بتسرع - رغبةً غريبةً لروسيا خلال شهري أكتوبر ونوفمبر 2015 في «الاحتكاك» بتركيا واستعراض الأولى لعضلاتها العسكرية الجوية على حدود الثانية

خصوصاً في الميدان الطاقوي. ويمثل العنصر الأخير طبعاً أحد العناصر التي تقف خلف اصطدام روسيا وتركيا في سوريا (مشاريع أنابيب الغاز الإيرانية والقطرية).

- 5 -

إبعاد تركيا عن روسيا أو روسيا عن تركيا، في حدود معينة، هو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة. والملف السوري هو أحد الملفات

معروفة حذرة إعلامياً بهذا الخصوص) وتوظيف الجميع لملف الطوائف الدينية والثقافية في المنطقة ندرك مردودَ حوادثِ جَسِّ النَّبْضِ وحادثة إسقاط الطائرة الروسية بالنسبة للولايات المتحدة.

## - 6 -

وفضلاً عن ذلك فإن الخطوات التنموية الكبيرة التي قطعتها تركيا في السنوات الأخيرة ونتائجها الجيوستراتيجية

رغم أن كل المعطيات الموضوعية تشير إلى حاجة روسيا الملحة إلى علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع تركيا ومصالحها خصوصاً في عدم دفع الأخيرة إلى البحث عن شراكات بديلة أياً يكن التنافس وأحياناً التناقض بين الدولتين؟

قبل أن نعود إلى هذا السؤال لنُلاحِظُ أن الناتو «يؤيد» تركيا كأحد أعضائه في وجه روسيا ولكنه «تأييد» غامض الدلالة في الوقت الراهن. وإذا أضفنا الملف الإسرائيلي (روسيا لأسباب

الممكنة هي أمر يزج كثيراً المجموعات الأيديولوجية والمصلحية بما في ذلك داخل بعض أروقة القرار في الدول الحليفة لتركيا.

وتكرر هذه المجموعات باستمرار أنه يلزم الضغط لتعطيل المسار التنموي لتركيا قبل وصوله لما سُمي «مرحلة اللاعودة». وهو ما يجعل تركيا تسير في المرحلة الحالية مُحاطة بكثير من المخاطر.

صحيح أن تركيا عضو في الناتو منذ 1952 وعضو مؤسس في مجلس أوروبا

منذ تأسيسه سنة 1949، وصحيح كذلك أن سمعة بوتين بشكل عام سيئة في الدول الغربية والأوروبية باستثناءات معينة في أقصى اليمين وأقصى اليسار، ولكن أسباب عديدة تجعل أجزاء واسعة من الرأي العام المركزي في أوروبا والدول الغربية تشعر بسهولة بنوع من التعاطف مع روسيا حين يكون المستهدف تركيا.



ما بعد الأحادية  
القطبية: من روسيا  
إلى الصين<sup>14</sup>

---

14 نُشر في رأي اليوم، 26 ديسمبر 2015.

## - 1 -

منذ السنوات الأولى للألفية الحالية  
كما هو معروف بدأت الأحادية القطبية  
التي أعقبت الحرب الباردة تتراجع.  
بدأت تدريجياً مرحلة التعددية القطبية.  
أما روسيا فقد شرعت في الخروج شيئاً  
فشيئاً من صدمة التسعينيات.

الدولة الكرملينية الممركزة أخذت  
تطفو على السطح. أخذت تستعيد  
بشكل خاص قبضتها على الشركات  
الاستراتيجية وعلى القطاعات الرئيسة

ولا سيما البترول والغاز الطبيعي.  
كما بدأت خطط إعادة بناء الجيش  
الروسي.

## - 2 -

تبنى العقيدة الروسية منذ عقد  
ونصف على اعتبار انهيار الاتحاد  
السوفيتي كارثة كبرى. الاستراتيجية  
الروسية منذ بداية الألفية مبنية على  
ثلاثة محاور مرتبطة:

- سياسة اقتصادية تستثمر من ناحية  
مصادرها الطبيعية الهائلة (النفط، الغاز  
الطبيعي إلخ.) وتحاول أن تسترجع  
قدراتها الصناعية عبر تطوير كفاءاتها  
العلمية والتقنية الواسعة.

- وسياسة إعادة تأهيل وتسليح  
ضخمة على الصعيد العسكري.

- ومركزية دَوْلِيَّة تَأْمِيميَّة على النمط  
العمودي الأحادي أو شبه الأحادي.

وكما هو معروف فإن مُتَّقِدي هذا  
النمط «البوتيني» يعتبرونه ارتكاساً

نحو النموذج البيروقراطي السوفيتي  
وحتى القيصري.

### - 3 -

لا شك أن هذه النزعة التأميمية  
الدولتية في روسيا لا تخلو بداهةً  
من جوانب أوتوقراطية ومن مركزية  
هرمية حادة. وفي جميع الأحوال  
فهذه الاستراتيجية قد أظهرت تحوُّلاً  
في العلاقات الدولية.

لقد اتَّضحَ أن روسيا تُصِرُّ كلياً على  
إيقاف تمُدُّ الاتحاد الأوربي وصدِّ  
توسُّع نفوذه والحدِّ من انتشار نموذج  
«الليبرالي» في البلدان المحيطة بها  
أي في الجمهوريات الموروثة عن  
الاتحاد السُّوفيتي. وشرعتْ مع عدد من  
الشركاء الإقليميين (خماسي شانغهاي  
ثم منظمة شانغهاي للتعاون، الصيغة  
المطوَّرة لرابطة الدول المستقلة، الاتحاد  
الاقتصادي الأوروآسيوي وقبْلَه المجموعة  
الاقتصادية الأوراسية إلخ.) والدُّوليين  
(مجموعة البريكس) في وضع ما تراه

طبعاً للتدخل الروسي في سوريا والذي أخذ يتضاعف بشكل واسع منذ صيف 2014 أسباب عديدة معروفة. ولكن الصراع الروسي الغربي هو أحد أبرز هذه العناوين. روسيا تعتبر أن الدول الغربية وظفت الربيع العربي لطردها من آخر مناطق نفوذها في العالم العربي.

بشكل خاص تعتبر روسيا أن «مُرونتها» سنة 2011 في الملف الليبي حيث

هذه البلدان مشاريع مُنافسة للمشاريع الغربية الجيوستراتيجية.

هنالك في الخلاصة اصطدام روسي غربي متزايد. كانت العلامة الفارقة في هذا الأساس هي الأزمة الأوكرانية. معطيات كثيرة تكشف أن دول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة فوجئت في أوكرانيا بقدرات روسيا العسكرية والتطور الذي عرفته خلال ست سنوات أي منذ الأزمة الجيورجية سنة 2008.

هل يعني تطور الأوضاع في سوريا أن المواجهة الروسية الغربية إن صحت التسمية (وهي مواجهة قد تأخذ شكل «التقارب» الميداني) قد بدأت تخرج من أوروبا ومناطق أوراسيا إلى دائرة ثانية من دوائر صراع النفوذ الموروثة هي الأخرى عن الحقبة السوفيتية؟ هذا على الأقل ما تذهب إليه الآن أغلب التحاليل. بعض المؤسسات البحثية في أوروبا الشمالية لا تتردد في الحديث في تقاريرها عمّا تسميه

لم تستخدم الفيتو لمنع القرار 1973 (اكتفت في مجلس الأمن بالامتناع عن التصويت على هذا القرار) الذي مثّل الغطاء الدولي للتدخل الغربي في ليبيا لم تُقايض إلا بما تراه شراسةً غربية لا حدود لها ضدّ المصالح الروسية. سوريا بهذا المعنى (موقعها الجغرافي، التقاطعات السياسية التي تمثل إلخ.) تختصر دلالات كثيرة عن المطامح الروسية المتصاعدة. وهي غالباً مطامح سوفيتية، وأحياناً قبل سوفيتية، تطفو من جديد شيئاً فشيئاً على السطح.

من المؤكد على الأقل أن الغربيين ينظرون بتخوف كبير إلى روسيا وطموحاتها. وعكساً للطبيعة الحذرة للصين مثلاً فإن السياسة الروسية أظهرت أنها لا تتردد في التدخل العسكري خارج حدودها المباشرة. كما أن روسيا أثبتت عمداً للدول الغربية أنها لا تشعر بنفس التخوفات الموجودة لدى الأخيرة أو لدى صناع قرار الأخيرة (طبيعة سلالم اتخاذ القرار، التخوف من المحاسبة إلخ). هل يعني ذلك أن روسيا قد بنت

الحرب الروسية الأمريكية بالوكالة في سوريا (مثلاً مركز الأبحاث حول العولمة في مونتريال أو معهد كاتو في واشنطن). والأخير يتحدث عن حرب بالوكالة مجنونة من وجهة نظر المصالح الأمريكية. وهو ما لا تخفى دلالته. ولكن ما تزال بداهةً بعض المعطيات والتحويلات الجارية في هذا المستوى لم تقل كلمتها الأخيرة.

استيراد الجيش الصيني وهو ثاني أكبر جيش في العالم لثالث سلاحه من روسيا إلخ، أن تكون استراتيجية) فإنه من العسير الحسم الآن في صلابتها في الأمد المتوسط.

معطيات التاريخ الحديث تثبت إمكانية حدوث هزات ما في التحالف الصيني الروسي (تصنيع السلاح والتنافس العسكري والاقتصادي لا سيما في منطقة النفوذ المشترك في آسيا الوسطى إلخ.) وهو على الأقل ما تراهن عليه

لنفسها صورة سياسية وعسكرية رادعة أم أنها فقط وضعت نفسها بتسرّع في مرمى الاستهداف الغربي؟

- 7 -

لنتذكر أنه بالرغم من أن العلاقات الروسية الصينية ظلت في تصاعد وتوسّع خلال العقدین الأخيرین وأنه أُريدَ لها، عبّرَ ما سمي بـ«السلام الساخن»، كقطيعة مع «العلاقات الباردة» خلال الحرب الباردة (المشاريع الطاقية الضخمة،



قليلة سيُفتح. وهو بالتعبير الخلدوني  
«أمر له ما بعده».

تيارات نافذة في الولايات المتحدة  
وحلفائها.

لُنْضِفْ هنا في المقابل أن العلاقات  
الاقتصادية الأمريكية الصينية ظلت  
أيضاً في تصاعد وتوسع وما تزال.  
ولكن استمراريتها على الأمد المتوسط  
بنفس الإيقاع أمر يمكن التشكيك فيه.  
فحين تصل السوق الصينية إلى مستوى  
متقدم من الاستقلال الذاتي - ربما في  
أقل من عقد - أي حين تتراجع الأهمية  
الاستراتيجية للسوق الأمريكية والأوروبية  
بالنسبة للصين فإن باب احتمالات غير

